الأدب المقارن عند العرب

تمهيد:

يتم التأريخ لظهور الأدب المقارن – في وسط ثقافي معين – على مستويين :

أولا:على مستوى علاقات هذا الوسط بغيره من الأوساط الثقافية واللغوية الأجنبية ؛ونقصد هنا التأريخ لهذه العلاقات والوقوف على أهم محطاتها ، وما أخذه هذا الوسط وما أعطاه في مجالات :الأدب ،الأفكار ،الثقافة ،اللغة ....إلخ....،وما نتج عن هذا التفاعل ،وهذا هو موضوع الأدب المقارن ومادته ،ولما كان وجود الظاهرة يسبق الوعي بها ويسبق وجود العلم الذي يدرسها ،وجب التركيز على هذا المستوى كخطوة أولى للتأريخ للأدب المقارن.

ثانيا :على مستوى الدراسات المقارنة ،أي ظهور الأدب المقارن – بمعناه الاصطلاحي- كعلم قائم بذاته يدرس الظاهرة المذكورة في المستوى الأول. وعليه سنبدأ بتَتَبُّع أهم محطات التواصل العربي الأجنبي .

1- التواصل العربي الأجنبي:

أثبتت الحقيقة التاريخية أن ازدهار الحضارات والأمم واستمراريتها مرهونة بمدى قدرتها على تجاوز العزلة والتفاعل الإيجابي المثمر مع غيرها من الحضارات المجاورة والمعاصرة لها ،وتسمى هذه الظاهرة – في عُرف الدراسات المقارنة – "التأثير والتأثر".وتُعد الحضارة الرومانية النموذج التاريخي الأبرز المعبر عن هذه الظاهرة؛ إذ لم تَقُم للثقافة الرومانية قائمة إلا بعد احتلال "روما" لليونان (146ق.م) واطلاع الرومان على الأدب والفلسفة والثقافة اليونانية والانبهار بها والنسج على منوالها ،وهذا نموذج تاريخي نادر يُقلد فيه الغالب المغلوب.

ولا يُعد هذا ضعفا أو فقرا فكريا، بل هو دليل نضج ومرونة ،ووعي بأهمية الاستفادة من تجارب الآخر شرط الحرص على عدم الذوبان فيه ،والاحتفاظ بالأصالة والخصوصية.

لم يكن العرب – يوما – بمنأى عن التأثيرات الأجنبية ؛فحتى في العصر الجاهلي،عرف المجتمع العربي صلات تاريخية ربطته بشعوب مجاورة له ،حيث عاش العرب بمحاذاة حضارتين عظيمتين في التاريخ هما :حضارة الفرس في ،وحضارة الروم. لم يتمكن العرب من الإفلات من المؤثرات رغم تحفظهم ،إذ امتاز العربي منذ القديم بالنفور مما هو غير عربي ،ورغم هذه المؤثرات بقي العرب محافظين على عاداتهم وأعرافهم والكثير من صفاتهم التي لم يغيروها إلا بشق الأنفس ،وذلك بعد أن حدث أكبر انقلاب ديني وحضاري في المجتمع العربي بمجئ الإسلام[1] .

غير الإسلام نظرة العربي للآخر وطبيعة العلاقة معه ، وطرح مفاهيم جديدة لم يكن للعربي عهد بها مثل :التعايش ،تقبل الاختلاف – في اللون واللغة والعقيدة – المساواة ونبذ العنصرية ،واعتماد العنصر الأخلاقي كمعيار وحيد للمفاضلة بين البشر ، ويظهر ذلك في أكثر من آية من الذكر الحكيم ،كقوله تعالى:﴿ يا أيها الناس ،إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،إن أكرمكم عند الله أتقاكم ،إن الله عليم خبير ﴾ – الحجرات 13– وقوله تعالى :﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم... ﴾– الأنعام 38– .كما جعل الإسلام من الحاضرة العربية قبلة لغير العرب (الأعاجم) ممن أرادوا اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية وعلوم القرآن والحديث والفقه ،وهذا خلق احتكاكا غير مسبوق بين العرب وغيرهم من الشعوب ،وبالتالي تعمقت علاقة العربي بالآخر واتخذت بُعدا مختلفا. وازدادت هذه الظاهرة عمقا ورسوخا في العصر العباسي ،حيث أصبح العنصر الأجنبي مُكَوِّنا أساسيا في التركيبة الاجتماعية العربية ،كما كان له حضور وتأثير على المستوى السياسي كذلك وخير مثال على ذلك عائلة "البرامكة" الفارسية التي عرفت بنفوذها السياسي والمالي زمن حكم "هارون الرشيد" وقبله ،حتى إن هذا الأخير شعر بالخطر إزاء نفوذها المتنامي ،ما اضطره للانقلاب عليهم ،فسجن البعض وقتل البعض الآخر ،وفي هذا دليل على قوة حضور العنصر الأجنبي. ولم يقتصر الأمر على الجانبين:الاجتماعي والسياسي ،بل تعدى ذلك إلى الثقافة والأدب ؛حيث ظهر جيل من الأدباء من ذوي الثقافة المزدوجة وظهرت أعمال أدبية هي نتاج حقيقي لتفاعلات ثقافية بين الشعوب أهمها "كليلة ودمنة" لابن المقفع الذي ترجم من الهندية إلى الفارسية ثم إلى العربية ،إلى جانب من عُرفوا بالشعراء المولدين ،وهم الشعراء الذين وُلِدوا من أمهات أعجميات ،وقد كان لهم دور وبصمة في تجديد الشعر العربي كأبي نواس وبشار بن برد ."وفي العصر العباسي قامت أوثق الصلات بين الأدب العربي والآداب الأخرى ،فقد وضع العرب أيديهم على تراثين ثقافيين عظيمين هما:التراث البهلوي (الفارسي) والتراث (الإغريقي) ...فتأثر العرب بغيرهم كما أثروا فيهم ونشأت عن ذلك ثقافة

[1] - شهيرة حرود ،محمد غنيمي هلال والمنهج المقارن ،منشورات مخبر الأدب العام والمقارن ،كلية الأداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ،جامعة باجي مختار –عنابة- دط ،دت ، ص18.

مزجت بين العربية واليونانية والفارسية ...حيث أخذ العرب عن الفرس بعض الفنون الأدبية خاصة التشريعية ،في حين أخذوا عن اليونان الفلسفة وضروبا من التفكير[1].

ومن أهم المحطات التاريخية – التي عرفت تواصلا ثقافيا عميقا ، عربيا أجنبيا – حقبة سيطرة العثمانيين على البلاد العربية ، وذلك على المستوى اللغوي،الثقافي والأنثروبولوجي .

وتَلَت هذه المرحلة ،مرحلة أخرى سمحت كذلك باحتكاك عربي أجنبي قوي[2] ،وهو عصر النهضة الذي شَهِدَ حملة نابليون على مصر التي تركت آثاراها على مصر على الصعيد السياسي والثقافي ؛فرغم أنها كانت حملة عسكرية إلا أن نابليون أخذ معه علماء في جميع التخصصات ،وعمل على إنشاء المعاهد العلمية ،دون أن ننسى آلة الطباعة .وقد أَدَّت هذه العوامل وغيرها إلى تسهيل نشر الثقافة وتعميمها ، خاصة بعد تولي "محمد علي باشا" حكم مصر سنة 1805 ،وعمل على تأسيس دولة حديثة على الطراز الأوروبي الحديث وذلك في مجالات :الثقافة و الاقتصاد والإدارة والجيش ،وأسس " المدارس ودور العلم ومراكز الطباعة وأرسل البعثات العلمية وأوصى طلابها بالترجمة وخاصة بعثة 1826"[3]. واستعان في بداية الأمر بمدرسين أوروبيين حملوا معهم أفكار "فولتير" و"روسو" و "مونتيسكيو" كما دخلت كتبهم المكتبات المصرية منذ 1816.وتولى العنصر المصري مهمة التدريس بداية من ثلاثينات القرن 19 م ،بعد عودة الطلبة المستفيدين من المنح الدراسية في "أوروبا"، وأهم أبناء هذا الجيل :"رفاعة الطهطاوي" و"علي مبارك" وغيرهم .

وفي ظل هذه الظروف ،كان من الطبيعي أن تترك الثقافة الأوروبية أثرها على جميع مناحي الحياة العربية :من مجتمع وسياسة وثقافة ،وتعمق هذا الأثر مع مطلع القرن العشرين ؛حيث كانت معظم الدول العربية خاضعة للاستعمار الأوروبي ،ورغم استقلال معظمها بنهاية النصف الأول من هذا القرن إلا أن التأثير الثقافي والأدبي الأوروبي لم ينقطع.

نستشف من خلال هذه اللمحة الموجزة بأن الثقافة العربية – بما فيها الأدب– لم تَعِش يوما في عزلة عن المؤثرات

1- المرجع نفسه ،ص 19.

2- الفرق بين هذه المرحلة و سابقتها هي أنها شهدت ازدهارا علميا وأدبيا لافتا عكس سابقتها التي عرفت تراجعا وركودا كبيرا للأدب وأشكال الفكر الأخرى

3- المرجع السابق،ص 21.

الثقافية والأدبية الأجنبية ،لكنها تتفاوت في القوة والضعف من مرحلة إلى أخرى .وهذا يعني أن مادة الدراسات المقارنة – وهي التأثير والتأثر –كانت متوفرة عند العرب منذ القديم ،فهل قامت دراسات مقارنة بين الأدب العربي والآداب الأجنبية ؟

2 – نشأة فكرة المقارنة عند العرب :

لم تكن فكرة المقارنة – في حد ذاتها – دخيلة على الأدب والنقد العربي ، وتظهر بأبسط صورها منذ العصر الجاهلي ؛حيث كانت تقام المباريات الشعرية – سواء ضمن أسواق الشعر أو غيرها من المناسبات – وفيها تتم المقابلة بين شاعرين أو أكثر والخروج بحكم في النهاية عن أَيِّهِمْ الأشعر أو الأفضل.وهذا ينطوي على مقارنة بالتأكيد. وبرز هذا النوع من المقابلات كذلك في كتب الطبقات التي تُصَنِّف الشعراء ضمن مستويات من الأشعر إلى الأقل شاعرية ،مثل كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (ت232 ه) وغيره من كتب الطبقات ،ومجرد وضع شعراء بعينهم في طبقة أعلى ووضع آخرين في طبقة أدنى ينطوي بالضرورة على مقارنة ، لكن ذلك كان "حسب حجج ذوقية في الغالب،عادة ما تستمد من العادات والتقاليد والاستعمالات اللغوية ،ثم حسب أقوال العلماء والروايات التي عادة ما تكون هي الأخرى في الأصل أحكاما ذوقية نابعة من مقارنات جزئية ثم تعمم لتصبح أحكاما مطلقة . غير أنها في الواقع أحكام تفتقر إلى التحليل المنهجي ،ولم تنطلق من تحليل للنص الإبداعي .وهذا ما جعل الطبقات التي قامت على روح مقارنية لا تتعدى المفاضلة والاحتجاج ولم تتطور إلى منهج نقدي مقارن ،رغم قيامها على مبدأ المقارنة"[1]، وبتطور النقد العربي في العصر العباسي ظهر اتجاه بأكمله يسمى بالموازنات ،ويقوم على الموازنة بين شاعرين أو أكثر من مختلف النواحي الفنية والبلاغية ، ، وأشهرها "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي "علي بن عبد العزيز الجرجاني" (ت392ه) ،و"الموازنة بين الطائيين" للآمدي (631ه) ،لكنها بقيت ضمن نطاق الأدب الواحد ،وبالتالي فهي ليست من الأدب المقارن في شئ .كما نجد مقارنات بعض النقاد و الفلاسفة العرب بين الشعر العربي والشعر اليوناني ، وأطلق الدكتور "عبد المجيد حنون" على هؤلاء مصطلح "التيار المعياري (اليوناني) " وعرفه بأنه "ذلك الاتجاه النقدي المتفتح على الفكر اليوناني الذي أراد أن يضع معايير نظرية للنقد العربي ،معتمدا في ذلك على آراء فلاسفة اليونان في نقد الشعر حسب الترجمات المتوفرة وقتذاك ،ويمثله "قدامة بن جعفر الذي حاول أن يجعل "علم الشعر" صناعة معيارية ،وتبعه في ذلك جملة من النقاد ،ويبقى الفلاسفة من أمثال "الكندي" و"الفارابي" و"ابن سينا" و"ابن رشد" أبرز فرسان

[1]-عبد المجيد حنون ،العرب والأدب المقارن ،دار ميم للنشر، الجزائر ،ط1، 2018، ص 15.

هذا الاتجاه "[1] ،وما يميز هؤلاء هو أنهم حاولوا التأسيس للنقد وجعله يستند إلى معايير علمية ،والخروج به من الطابع الانطباعي الذوقي الذي ميز ممارساته المبكرة ،متأثرين في ذلك بالنقد والفلسفة اليونانية السباقة في هذا الشأن ،وذلك بعد اطلاعهم على كتاب "فن الشعر" لأرسطو واهتمامهم به بداية من نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الهجري ،وأهمهم: "الفارابي" الذي قارن بين كثير من الأمم في مسألة علاقة الوزن الشعري وتوصل إلى أن اليونانيين هم الأمة الوحيدة التي أفردت لكل نوع شعري وزنا معلوما ،ومقارنة "ابن سينا" بين اليونانيين والعرب في مفهوم الشعر ثم الوزن وعلاقته بالموضوع ،إضافة إلى كل من "ابن رشد" الذي قارن بين التراجيديا والمديح وبين الكوميديا والهجاء "كما درس مسألة الخيال بين الأدب العربي واليوناني ،و "حازم القرطاجني" الذي كان أكثر دقة ومنهجية في مقارناته من كل سابقيه ،وكان كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" زاخرا بمقارنات دقيقة بين الأدب العربي واليوناني .

كانت المقارنة حاضرة في ثنايا النقد العربي القديم مذ كان هذا الأخير ذوقيا انطباعيا وصولا إلى مراحله المعيارية المؤسسة "إلا أنها لم تتطور إلى علم مستقل بذاته لأسباب كثيرة منها العامة ويشترك فيها الأدب العربي القديم مع غيره من الآداب المعاصرة له كالافتقار إلى النزعة القومية ،وقلة انتشار اللغات الأجنبية ،وصعوبة تداول النصوص الأدبية لأسباب تقنية معروفة ...إلخ .ومنها الخاصة ،وتتمثل أساسا في ارتباط الأدب العربي بالدين الإسلامي وقيمه وأهدافه ،الأمر الذي جعل المقارنة الأدبية عند العرب لا تحفل كثيرا بالآخر"[2] ولم يُمَثِّل العرب في هذا استثناءً ،بل كان هذا حال كل الأمم التي مرت بفكر العصور الوسطى الشمولي.

أما في العصر الحديث فقد تطورت هذه الممارسات المقارنة على مراحل قبل أن تُتَوَّج بظهور الأدب المقارن بمعناه الاصطلاحي كعلم قائم بذاته، وكان ذلك على مراحل أربعة نلخصها كما يلي[3] :

1-مرحلة الترجمة والمقابلات:

يمكن تحديد الحيز الزماني لهذه المرحلة بعصر النهضة (القرن 19م) ، وعُرف هذا العصر بظهور مجموعة من المترجمين الذين اطلعوا على الآداب الغربية وعملوا على نشرها في أوساط القراء العرب عن طريق الترجمة ،كما قابلوا في محطات موجزة بين هذه الآداب والأدب العربي بحكم اطلاعهم على الاثنين. ونذكر من بين هؤلاء:

---

[1]-المرجع السابق ،ص 19.

[2]-المرجع نفسه ،ص32.

[3]-هذا تقسيم اعتمدته الأستاذة "شهيرة حرود" في كتابها السابق.

- **رفاعة الطهطاوي (1801–1873)** :أحد رواد النهضة في مصر والوطن العربي ،كان على رأس أول بعثة علمية أرسلها "محمد علي باشا" للدراسة في باريس سنة 1826، وقضى هناك خمس سنوات تمكن فيها من اللغة والأدب الفرنسي ،ثم عاد إلى مصر سنة 1831 ليشتغل مدرسا ومترجما في مدارس التخصص .

وضع "الطهطاوي" أكثر من عشرين ترجمة لأعمال مختلفة من الأدب والفكر الفرنسي من بينها "مغامرات تلماك" وهي قصة من أدب الطفل للأديب الفرنسي "فينيلون" ،وعقد عدة مقارنات بين الأدب العربي والآداب الأوروبية خاصة الفرنسي .عرف الطهطاوي بتأثره بالثقافة الغربية خاصة في شقها العلمي ،"وأسهم في انتشار مفاهيم ثقافية غربية في ميدان اللغة والأدب ،فقد تشبع ميدانيا بما عاشه في فرنسا ،فاستغنى في أبحاثه اللغوية والأدبية عن التعميمات المطلقة ،وأدرج من خلال مبدأ النسبية موازنات بين بعض الظواهر والقضايا التي اختص بها هذا الأدب أو ذاك ،ولذا صنفناه في هذه المرحلة لأنه عمل كثيرا في حقل الموازنة والذي نعده من أهم العناصر المكونة للتطور نحو المنهج المقارن"[1].

- **سليمان البستاني (1856–1925)**: صرح شامخ من صروح النهضة العربية الحديثة ، يرتبط اسمه بترجمة إلياذة هوميروس ،وهو عمل ضخم استغرق عشرين سنة ؛حيث أعاد تأليفها بأسلوبه الخاص وأعاد صياغتها شعريا وفق موسيقى الشعر العربي ،وقدَّم لها بمقدمة في مئتي صفحة قارن فيها بين الشعر العربي والشعر اليوناني ،ومن بين ما توصل إليه في هذا الصدد هو أن الشعر العربي غنائي في معظمه بينما تنوع الشعر اليوناني بين الملحمي و الغنائي والتعليمي والدرامي.

ويتضح من خلال المقدمة تمكن "البستاني" من الترجمة واللغات ،ولم يَفُتْه أن يقابلها مع اللغة العربية ،فقابل مثلا بين لغة قريش العربية القديمة و لغة الإلياذة اليونانية وكيف عاشت الأولى وتلاشت الثانية "ويرى أن اللغة العربية أطول عمرا من غيرها وجذورها التاريخية أعمق امتدادا لارتباطها بالقرآن الكريم ،في حين أن اللغة اليونانية لم تقع لها دعامة ثابتة حتى في بلادها"[2] ،كما يقارن بين "هوميروس"وبعض الشعراء العرب القدامى ،وكان تركيزه منصبا على بيان نقاط التماثل والاختلاف بين اللغة العربية واليونانية وبين الفنون الشعرية العربية واليونانية ،واستنتج أن غنى اللغة العربية سمح له بنقل الإلياذة بسهولة حيث لم تغفل العربية مجالا إلا واحتوته.كما قابل بين أوزان الشعر العربي واليوناني.

---

[1]-المرجع السابق ،ص 26.

[2]-سليمان البستاني ،إلياذة هوميروس ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت –لبنان ،دت ،ج1،ص 155،نقلا عن :شهيرة حرود ،غنيمي هلال والمنهج المقارن ،مرجع سابق ،ص27.

- **الشيخ نجيب الحداد (1867–1899):**

يُذْكَرُ الشيخ "نجيب الحداد" في هذا السياق من خلال مقاله المعنون بـ :"مقابلة بين الشعر العربي والإفرنجي" الذي نشره سنة 1897 ، وقارن فيه بين الشعر العربي والفرنسي ،يقول في مقدمة المقال:"وقد سألني من لا تسعني مخالفته أن أستعين بما توصلت إليه من قراءة الشعرين العربي والإفرنجي على وضع مقالة أبين فيها مقابلة بينهما ،وأتكلم عن الفرق بيننا وبين أهل الغرب في معاني الشعر وأنواع إيراده وأذواق ناظميه وطرائق البيان في مآخذه وإبراز المقاصد منه إلى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعوية عند كل من الفريقين"[1] .تتطلب مثل هذه الدراسة اطلاعا واسعا على الشعر الفرنسي وتمكنا منه بلغته ،وإحاطة تاريخية واسعة بالحيثيات والظروف التاريخية المتعلقة بالشعر العربي والفرنسي وهذا أمر نادر وملفت لناقد عربي في القرن التاسع عشر .

وتتلخص أهم نتيجة – توصل إليها "الحداد"في دراسته هذه – في قوله :" ومن الفروق بيننا وبينهم في نظم الشعر أننا نفوقهم في وصف الشئ وهم يفوقوننا في وصف الحالة ؛أي أننا إذا وصفنا الأسد أو الفرس أو القصر ،أو الفتى الجميل أو الغادة الحسناء أتينا في ذلك بأحسن مما يأتون به ،وتوسعنا فيه توسعا لا يقدرون هم على الإتيان بمثله .وأنهم إذا وصفوا حالة من قتال رجلين أو معركة جيشين ومقابلة محبين أو غرق سفينة أو مصاب قوم جاؤوا في ذلك بأحسن مما نجئ به وتوسعوا فيه بما لا نقدر أن نسبقهم إليه"[2].

كان هؤلاء أهم رواد هذه المرحلة التي لعبت دورا تاريخيا هاما في توجيه الدرس الأدبي نحو وجهة مقارنة ،ويتمثل هذا الدور في تهيئة الجو الفكري العام بما يتطلبه الدرس المقارن عادة وهو التعرف على الآخر والاطلاع على أدبه وذلك بفضل الترجمة ، وهذا يعتبر أول مستوى من مستويات الدراسة المقارنة .وتأتي بعد هذه المرحلة مرحلة أخرى خطت خطوة جديدة نحو الأدب المقارن وفيها تم الانتباه للظاهرة الأساسية التي يدرسها الأدب المقارن وهي ظاهرة التأثير والتأثر.

2–مرحلة دراسة التأثير والتأثر:

اكتفى رواد المرحلة السابقة بالمقابلة بين الأدب العربي وآداب أجنبية وتحديد بعض الفروقات بينها – في موضوعات بعينها – دون تبيان ما أخذه أدب عن أدب،أو فيم أثر أدب على أدب أو فيم تأثر به.وهذا ما يميز هذه المرحلة عن سابقتها. ينشد الأدب المقارن – حسب المدرسة الفرنسية – إظهار مواطن التلاقي التاريخية بين

---

[1] -نجيب الحداد ،مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي ،نقلا عن :شهيرة حرود ،مرجع سابق ،ص 28.

[2] -المرجع نفسه ص 144-145.

الآداب ،وهذا يفترض ظرفا تاريخيا معينا لعب فيه أدب ما دور المؤثر فيما كان أدب آخر متأثرا ،وعلى الدارس المقارن أن يُفَصِّل في شرح هذا الظرف التاريخي وإيضاح ملابسات التأثير والتأثر الحاصل.في الحقيقة هذا ما نجده عند أول رواد هذه المرحلة – **الفلسطيني "محمد روحي الخالدي (1864–1913)** – في كتابه **"تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيجو"** الذي نُشر في مقالات منفصلة على صفحات مجلة الهلال سنة 1902،ثم جمعت هذه المقالات وطُبع الكتاب كاملا سنة 1904 ثم 1908 " غير أن ذكره اختفى ولم يعد له أهمية تذكر إلى غاية 1983 عندما أثار حسام الخطيب الحديث عنه في محاضرة ألقاها في الملتقى الدولي حول الأدب المقارن في الوطن العربي بجامعة عنابة (الجزائر) من الرابع عشر إلى التاسع عشر ماي 1983"[1]،ومن المواضيع التي أثارها الكتاب: ما أخذه الإفرنج من قواعد الشعر العربي ،وقد تناول هذه القضية في الفصل الرابع عشر من الكتاب منوها بالملابسات التاريخية التي سمحت بانتقال الأفكار ،يقول :"فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة أن الاختلاط بين العرب والإفرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب أرض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وحرثوا أرضها وتزوجوا ببناتها وتاجروا مع أهلها ..فكانت الأفكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانوا على طرفي نقيض"[2]، يُخَيل لقارئ هذه الأسطر أنه أمام دراسة في الأدب المقارن على طريقة المدرسة الفرنسية ،إذ لم يتوقف "الخالدي" عند مجرد العرض لمواطن تأثر الشعر الفرنسي بالشعر العربي ،بل بَيَّن الظروف التاريخية التي سمحت بتلاقي الفريقين وتبادل الأفكار بينهما .

ومن مواطن التأثير العربي التي ذكرها الكتاب :

-إنشاد فقراء الإفرنج الأناشيد والمدائح العربية.

-أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب.

-اقتباس الإفرنج أقاصيصهم عن العرب[3].

1- شهيرة حرود ،المرجع السابق ،ص 31.

2- محمد روحي الخالدي، علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيجو ،الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ،دمشق ،ط1985،4،ص125،نقلا عن المرجع السابق،ص 32.

3- انظر المرجع السابق ،ص 32.

وإضافة إلى هذه الموضوعات وغيرها – والتي تصلح للدراسة المقارنة – شرح "الخالدي" بعض مبادئ المذهب الكلاسيكي والرومنسي وقارن بين رسالة الغفران للمعري والكوميديا الإلهية لدانتي.وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصطلح "التأثير والتأثر" لم يَرِدْ صراحة في كتاب "الخالدي" لكن الظاهرة – في حد ذاتها – حاضرة ومدروسة فيه.

أما ثاني ممثلي هذه المرحلة فهو "قسطاكي الحمصي" (1858-1941) في كتابه "منهل الوراد في علم الانتقاد" بأجزائه الثلاثة ،حيث صدر الجزءان الأول والثاني سنة 1907 ،وصدر الثالث بعد ذلك بثلاثين سنة ،وعقد في هذا الكتاب مقارنات بين الأدب العربي والأدب الغربي ،وأهم ما توقف عنده هو مقارنة وافية في تسعين صفحة بين "رسالة الغفران" وما سماه "الألعوبة الإلهية" – أي "الكوميديا الإلهية" – وذلك في الجزء الثالث .

3-مرحلة ظهور المصطلح والدراسات المقارنة:

تتميز هذه المرحلة بأن ممثليها متخصصون في الدراسة الأدبية ومتفرغون للبحث الأكاديمي عكس المرحلة السابقة ،فقسطاكي الحمصي كان تاجرا أما الخالدي فعمل بالسلك الديبلوماسي ، أما في أوروبا فقد ازدهر الأدب المقارن – خلال هذه المرحلة – وتجذر كتخصص ثابت مستقل وقائم بذاته.

ظهر مصطلح الدراسات المقارنة لأول مرة في رحاب الجامعة المصرية وذلك في مدرسة دار العلوم سنة 1924 "حيث تقرر تدريس مادة "اللغة العربية واللغة السريانية ومقارنتهما باللغة العربية"[1]،وتمت إضافة مادة أخرى سنة 1938 وهي"الأدب العربي المقارن وقراءات في المراجع العربية القديمة"[2].

كما شهدت هذه المرحلة حركة نشطة على مستوى الدراسات العلمية على صفحات المجلات الأدبية بالقاهرة وذلك بعيدا عن تدريسه الرسمي بالجامعة ،و نذكر هنا "فخري أبو السعود" الذي نشر عدة مقالات في مجلة الرسالة بين سنتي 1932 و1935 قارن فيها بين الأدب العربي والإنجليزي وعالج موضوعات مختلفة منها النزعة العلمية ،والخيال وموضوع المرأة وموضوع الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والإنجليزي الذي ألحق به عنوانا جانبيا وهو "في الأدب العربي المقارن[3]، لكنه لم يدرس العلاقات التاريخية ولا مظاهر التأثير والتأثر.كما قام "خليل هنداوي" بنشاط مماثل خلال الفترة ذاتها انطلاقا من فلسفة "ابن رشد" وتأثيراتها.

1- المرجع السابق ،ص 35.

2- المرجع نفسه،ص 36.

3- نفسه ،ص36.

وفي مرحلة لاحقة دخل الأدب المقارن في منهاج دار العلوم سنة 1945 حيث قرر المجلس الأعلى "إنشاء قسم الأدب المقارن والنقد والبلاغة ،وأُنْتُدِبَ للإشراف عليه "إبراهيم سلامة" و"عبد الرزاق حميدة فتعاونا على تدريس مادة الأدب المقارن ولم يكونا من المتخصصين في الأدب المقارن"[1] ،وسنة 1952 أصدر "إبراهيم سلامة" دروسه في كتابه بعنوان "تيارات أدبية بين الشرق والغرب" "وهو كتاب فيه كثير من الخلط وعدم اتضاح الرؤية وجهل الأدب المقارن من حيث المنهج والأهداف "[2] والملاحظة نفسها تنطبق على محاضرات "عبد الرزاق حميدة" التي جمعها هو الآخر في كتاب سنة 1948.

أما جامعة القاهرة فقد بدأ تدريس "الأدب المقارن" بقسم اللغة العربية فيها سنة 1953 عندما التحق بها "إبراهيم سلامة" بعدما ترك دار العلوم ،وقد أشرف هو على تدريسه .

يعود الفضل في تثبيت مصطلح الأدب المقارن في الجامعة المصرية لكنهما لم يكونا متمكنَيْن من مفاهيمه ومنهجه بالقدر الكافي وذلك لأنهما لم يتخصصا فيه ."ولعل المفهوم الصحيح للأدب المقارن أخذ حيزا في الأذهان منذ ترجمة كتاب "فان تيغم" :الأدب المقارن سنة 1948 الذي ترجمه سامي الدروبي" [3].

4-مرحلة المتخصصين:

تعود إلى خمسينات القرن العشرين عندما عاد طلبة البعثات العلمية – الذين تخصصوا في دراسة الأدب المقارن في الجامعات الفرنسية – إلى مصر وتَوَلَّوا تدريس الأدب المقارن بالجامعة المصرية ،"حيث عاد غنيمي هلال ليدرس بدار العلوم في قسم "الأدب المقارن والنقد والبلاغة "كما عاد "حسن النوتي" و"أنور لوقا"و"عطية عامر" ،وقد تتلمذوا جميعهم على يد "جون ماري كاري" ،وبحكم دراستهم في فرنسا تأثروا بالمنهج الفرنسي فانعكس ذلك في دعوتهم للأدب المقارن وتدريسهم له"[4].

ويعتبر "محمد غنيمي هلال" رائد الأدب المقارن في الوطن العربي وأول من تخصص فيه، فضبط مصطلح الأدب المقارن وحدود اهتماماته وتطبيقاته ،وذلك في كتابه "الأدب المقارن"، "تجاوز بفضل كتابه الأدب المقارن ،مرحلة

-نفسه ،ص 38.[1]
-المرجع السابق ،ص 38.[2]
- نفسه ،ص 39.[3]
-نفسه ،ص40.[4]

التعميمات والسطحيات وفهم المنهج على حقيقته فسعى في أثره الدارسون وأدخلته الجامعات في كلياتها وخصصت له كَرَاسٍ خاصة"[1].

دخل الأدب المقارن الوطن العربي من بوابة الجامعة المصرية وسرعان ما انتشر ليدخل في البرامج الدراسية لكل الجامعات العربية تباعا.

[1]-نفسه ،ص41.